« من أكون في اعتقادكم ؟ »

بقلم روجيه غارودي ——— ترجمة د. سهيل ادريس

تصدر هذا الشهر عن دار الآداب رواية « من أكون في اعتقادكم ؟ » ، وهـي آخر آثار المفكر الفرنسي التقدمي الكبير روجيه غارودي ، وأول عمل روائـي له . وقد ترجمها الدكتور سهيل ادريس . وهي ان كانت تجسيدا روائيا لاهم نظريـات غارودي ـ ومن هنا قيمتها الفكرية ـ فهي اثر فني يبلغ ذروة رفيعة مـن الجودة في السرد والتحليل والتكنيك .

وتنشر «الآداب» فيما يلي هذه الصفحات النموذجية من الرواية الرائعة :

كان رجال الميليشيا قد اكتشفونا .

وقد اكتشف اقترابهم أحد حطابينا السود ، من قمة احدى التلال . وشعرنا اننا مطاردون ، وربما محاصرون عما قليل . اننا ، هذه المرة ، لن ننجو بأنفسنا ، بواسطة العصي والحجارة .

كان الحطاب يعرف الغابة معرفة جسدية . ولقد رأى بنظرة واحدة ، من أعلى مرصده ، شقوق الظل في كتلة الغابات ، العروق التي تستطيع الريح التي تنداح فيها أن تؤرّث نارا وتجعلها تطفر بسرعة حصان يعدو .

واذ ذاك صعدت في داخله ذكرى الاساطير القديمة . كان القدامى يتناقلونها فما عن فم منذ قرون : حين كان رواد الفتح ، « البندیرانت » ، يحلمون باكتشاف « جبل الزمرد » أو « الالدورادو » الخرافيّ ، كانت الغابة العذراء تشكل في نظرهم عقبة لا تخترق . فكانوا يشعلون حرائق هائلة ليشقّوا لهم ممرا . وهكذا اكتسحوا جنوب البرازيل ، مدفوعين بحمّى الذهب .

بدا حطابونا يضعون فوانيسهم حتى توفر زوابع النار فريقنا ، وينصبون حوله متاريس تصعد حتى السماء وتهدد مواقع العدو حتى معسكره البعيد .

بعد هنيهة ، ستصبح مضاءتنا على درب اللهب .

عدونا نحو ربوة جرداء . تبعت بالونا ، ممسكا بها كلما تعثرت بالصخور . للمرة الاولى ، تلامسها يدي... فاذا ما يشبه البرق يخترق جسدي كله . انها تشعّ بقوة عجيبة .

وفي أقل من ساعة ، كنا لاجئين على جزيرة ضربها أوقيانوس من اللهيب .

أخذ شيء ما يتحرك خلف القمم السوداء . صعدت ضبابة رمادية من الغابة . تعكر أسفل السماء رويدا ، ثم بدأ لعاب مزبد ودام ، على مستوى القمم ، يسيل بمحاذاة الاشجار . ووسّع الحطابون مقطع الحريق حول جزيرتنا . هدموا السور العظيم ، وانتشرت أصداء فؤوسهم وسواطيرهم من كتلة الى كتلة ، ومن كهف معتم الى كهف معتم ، متلاحقة في الظلمات . اهتزت الاصوات في مكان ما ، منعكسة ، مطاردة ، بعيدة عن عالمنا الصغير الحي . كانت نداءاتهم تذكّر بعالم آخر لا أدري ما هو . ثم تختفي في المضاءات التي لا يجازف فيها أحد قط والتي يبدو ان ما يشبه الاشباح ترودها أبدا .

ثمة صوت انقصاف شجرة تقطع ، وقرقعة أغصان تحطم ، والرعد الاصمّ لسقوط جذع هائل . ويحمل الصدى في الريح حشرجة الغابة هذه .

ينفجر الليل الهابط ويتمزق . وتدمدم جميع الاشجار برسالة حداد .

ورويدا رويدا ، يغطس قمر نحاسي عظيم في كتل الروابي المظلمة .

ان شيئا ما قديما جدا يتحرك في أحشائنا يشدّنا الى تشنجات هذا البركان .

الهواء يحكّ الحنجرة والرئتين ، ويصبح ثقيلا ودبقا . وتأتي زوبعة من ريح فتنفث لنا هذا النفس الحامز الشبيه بالكحول .

تمزق الزوابع الليل ، فتنهار السماء رقعا كبيرة. ويرهق مدّ النار المجنون منظرتنا ، بينما تختلط العتمة بالالوان والتألقات .

نحن في المرقب . آلاف الهكتارات من الغابة تحترق . ونحن نشارك في الاعراس الفارهة لأمازونيا وللنار . وفي تلك الليلة ، عانقت الشمس الجبل من وسطه .

اننا مشدودون بعضنا الى بعض على جزيرتنا الصغيرة . وبالونا ، التي لا تروّض ، تتشبث بسترتي الممزقة كفتاة صغيرة تخاف ألسنة اللهب . وتصورت ، وأنا في مواجهة الحريق ، ان شبانا وفتيات من شهداء القرون الاولى ، لا بد أن يكونوا ، وهم صاعدون معا الى المحارق ، قد بدأوا يتبادلون الحب هكذا ، بكثافة تتضاعف ما اقتربوا من الموت .

كانت أقواس كبيرة من اللهب ترسم منحنيات الاشجار ، تضمها وتسحقها أرضا كنساء راضيات . وعند حواشي المضاءات ، تتمدد مجسّات النار ، حمراء ثم ذهبية . وفوقها ، دخان أبيض مخطط بالرمادي ينحلّ وشاحات في سماء سوداء ، أكثر كمودا .

لقد أصبحت الطبيعة كلها حليفة لنا . انها تبسط قواها بمقدار الرهان : الحرية والحياة .

بين الفينة والفينة ، ينتفض كل شيء باندفاعة واحدة : النار والارض والغابة والسماء . فمن كل مكان ، تنفجر الارض وتدفق دمها من جراح واسعة كالبراكين . وترسل الغابة ، على مدى النظر ، تمتماتها وزمجراتها الشلالية . أما السماء ، فانها بتشنجاتها ترتفع أحيانا فوق الغابة وتتراجع مطعونة بخناجر اللهب الرشيقة . اذ ذاك ، تنتصب رابية مشعثة لتطاردها ، يلتوي شعرها الاحمر في سواد السماء والنار ، بضربات قوية من فمها المدمّى ، فتفرغ الغابة المتمردة المهزومة من أحشائها .

هذا النصر ، أحسّه في جسدي ، ونتقاسمه . أمسكت بالونا بيدي . وعلى وجهها الذي تديره نحوي ، ملتهبا بانعكاسات الحريق ، ترتسم بسمة سعيدة .

تهبّ عواصف ، بسرعة خاطفة ، فتسوق حشود اللهب المدماة التي يطاردها اعصار السماء فيأخذها الجنون ، ويمزقها سوط الزوابع ، فتتلوى وتقوس تلتها تحت الاثقال . انها تتدفق وتطفر وتزمجر كدبابات في معركة . انها تركب الادغال الملتهبة التي تغذي ، على مستوى الارض ، طقطقات رشاش .

أمام الغابات العالية ، تشبّ العصبة المتوحشة ، مترددة ، ذات لحظة ، ثم تنقضّ في ثقوب الادغال السوداء ، فيسمع انفجار كتلتها في زمجرة انتصار . وما تلبث أن تظهر ثانية ، في ضحكة وحشية ، عند قمم الاشجار ، محرّكة راياتها فوق المهزومين ، مطلقة في السماء صواريخ شرارتها ، ثم تندفع من جديد ، فتغادر الهيكل الذي تسيل جدعانه المحروقة لهبا فتلحق بالموكب الضاري .

ونستمد ، بالونا وأنا وجميع الرفاق ، من قيامة اللهيب ايمانا جديدا بمعركتنا .

خمسة أيام من المؤن ... ما يزال أمامهم هناك خمسة أيام أخرى من المؤن ، حين نستأنف سيرنا في الصباح ، وقد نجونا مرة أخرى . وأحسّ على جلدي الرماد الممزوج بالعرق يسيل دبقا . نعبر صامتين ما كان غابة ، بجثثها من الاشجار ونقاط الجمر الحمراء تلك ، ألوف الاشباح التي ما كان للموت أن يخفف من حقدها . ان رقعة صغيرة من الارض المسودّة تمتد بيننا وبين هذا الحاجز المأتمي .

تمثال مفحّم : جثة رجل . انه يسد طريقنا . ما تزال عظام يده اليمنى متشنجة على ساعد فأسه المسودّ . وقد عرفناه من هذه العلامة : انه أحد حطابينا السود وقد اختفى في عاصفة الليل . وكان يضم في ذراعه الاخرى طفلا .

ذقن الحطاب ترتاح على رأس الطفل في حركة حب أخيرة قام بها حماية له . ثمة خصلة شعر شقراء نجت بأعجوبة . تركع بالونا قرب الجثتين . تلامس الخصلة الذهبية التي تسقط في يدها . تحملها الى شفتيها . تخرج من صدارها الصليب الابنوسي ذا المسيح النحاسي وتضعه على صدر الحطاب .

تنهض أمامنا في المساء قرية مهجورة . لقد تجاوزنا المنطقة المحروقة . بعض شتلات المطاط الداسية ما تزال بارزة بين الحجارة .

يفتح شبح الكنيسة بجؤجؤه السماء الدكناء . والسقف الموشك على التداعي ، يتقوّس مسحوقا بتيهور السماء الذي يثقل عليه بكل عبء تهديداته . أما الجدران فهي تلتوي ، بالعكس ، تحت الثقل نفسه . لكأنها تواجه القدر بمقاومة أخيرة يائسة . والارض نفسها محدّبة . أي زلزال رفع هناك أمواجا وحفر هوّات ؟ ان الارض تتصدع في التشنج نفسه . وتلتوي ، على طول المحراب ، شجرة ميتة أشبه بزاحفة منتصبة . وعند أسفل الجدران تعج أدغال ، كأنها دعاميص على جيفة .

هذه الكنيسة المتهدمة تشبه جسما مات تحت التعذيب . لقد كفّ القلب الذي كان يعيش فيها عن الخفقان ، ولكنه طبع فيها رعشته الاخيرة .

ذلك الملجأ لليلنا قاسمنا آلامنا .

ليس أمامهم بعد الا أربعة أيام من المؤن ... أربعة أيام ، وانها بلا انقطاع الصلاة المعذبة نفسها في وجدان كل منا : هل نصل في الوقت المناسب ؟.. هل نصل ؟.. يجب أن نمضي عند الفجر .

ولم نجد الا بضع حبات من الجوز تحت شجرة جوز متوحدة .

كنا ننتظر عودة العملاق . لقد تسلق كثيبا ليرصد الاخطار الممكنة .

« يجري قتال قرب النهر !.. » . لقد شاهد من أعلى مرصده معركة حقيقية ، عند حافة النهر ، بين رجال الشرطة وعصبة من الفلاحين لا بد انهم هبوا للدفاع . ربما كان لهيب حريقنا قد أيقظهم . لقد قام رجال . ومعهم ، سنحطم الدائرة التي تضيق حولنا .

ولكن الليل الهابط حال دون أن يتبين العملاق نتيجة المعركة . وكنا ، حتى قبل أن نأكل ، قد نقلنا من خرائب القرية كلها أعمدة وروافد وكتلا من الحجارة لنسدّ بها باب الكنيسة . وكان طيف بالونا ، المنحنية تحت جذع شجرة كانت تجرّه ، ينعكس على السماء : المصلوب تحت صليبه . انها تحمل أثقالا تتجاوز قواها . وكانت طاقتها تفيض في داخلي .

انحفر نقب من الصمت حين بدا لنا هذا الامان الرخص مؤكدا . أنفاس لاهثة . وأنا مستند ، بجانب بالونا ، على جدار جناح الكنيسة . وينحني رأسانا ، ويلتقي صدغانا . وتخفق عروقنا على ايقاع واحد .

أطلق العملاق قوّته في هذا العمل الدفاعي . ان هذا الصراع هو طريقته في أن يحيا ايمانه . ان من يحبه هو رب فعال ، رب يقول ما ينبغي عمله في لحظة الخطر . وقد أدركت ، وأنا أعمل الى جانبه ، ما هي أسمى حقائق الرب : ان الرب هو ما يعطي ، في أشد المواقف يأسا ، اضافة من الطاقة . وهكذا كان يعيش قوته العملاقية ، وربه في قلبه . ان الله ، في نظره ، هو الاكتشاف الازلي للقدرة الازلية .

واذ أخذ ، بعد الجهد ، نفسا طويلا ، وهو يرسل ما يشبه حمحمة حصان ، بصق في كفّيه كما لو انه كان ينتظر أمرا بمهمة جديدة . لقد بدأ يشكو الملل ، بعد المعركة مباشرة . ان في حياة هذا الرجل شيئا عجيبا حقا : هذه الحاجة للعمل ، لان يعيش عاليا وفي خطر ، أن يتطوع دائما للموت ، ذلك اليقين ان بامكان المرء أبدا أن يتجاوز حدوده اليومية .

لقد كان يعيش على طريقته حياته كمكافح ، كما يعيش آخرون حياة الشعراء التي يكون الخلق فيها هو الحاجة الاولى .

تهمس بالونا في أذني : « انه يصنع كل شيء ، كما تصنع امرأة طفلا » .

انه يحدس جيدا بأننا نستعد لمعركة غامضة . أية معركة هي ؟

كان احساسه بعرق الآخرين على كتفه يمنحه قوة جديدة . لم نكن وحدنا . وكان هذا ، في نظره ، هو الايمان والنعمة . أن يعيش مع الآخرين ، ان يعيش بالآخرين ، ومن أجل الآخرين ، هي ذي ، عنده ، التجربة الوحيدة للمقدس .

ومن غير أن أكفّ عن النظر الى شبحه الهرقلي ، أجبت بالونا : « هذا هو الحب » .

ولم يسبق له قط أن فهم جيدا ما كانوا يحكونه له في الكنيسة عن رب للمعارك ورب يحب . ولكن كل شيء انتهى الى الانتظام في رأسه الغرانيتي . ان كل شيء يتضح ، بمجرد أن تتلخص القضية بأن يجازف المرء بحياته من أجل الآخرين .

أن يكون في هذه الكنيسة الموصدة ، والمحاصرة عما قليل ، كان ذلك يطمئنه ، ويفرحه : ففي لحظة الهجوم ، سيعرف تماما ما ينبغي أن يفعله . انه يطحن الجوز بين أسنانه ، كما كان يفعل لو وضعوا بين قبضتيه جلادا معذبا .

وما لبث أن قفز ، وهرع ينظر عبر شقوق الخشب .

كان ثمة من قرع ، بخجل ، على باب الكنيسة . وقد تحادث معه بضع لحظات ، وفصل رافدتين ليسمح له بالدخول ، ثم أغلق خلفه المقصّ .

كان راهبا بثوب من المسح رمادي ، ذا يدين ووجه ناحل ، وعينين متفحصتين . كان يتكلم بصوت رتيب . ترتعش فيه ، مع ذلك ، شفرة فولاذية .

« لقد سحقت ثورة فلاحي القرية . وقد شنق قادتها . وأنتم الآن محاصرون من قوى الامن . وقد كلّفوني بهذه الرسالة لكم : ان أمامكم ساعة للصلاة ، ثم تستسلمون أو تموتون » .

رفع العملاق قبضتيه الاثنتين ، وحسبت انه سيسحق الغريب . ولكنه تمالك نفسه ، وقذف في وجه الراهب :

« لسنا هنا لنصغي الى أوامر الشرطة ، وانما لنسمع كلام الله وننفذه ... » وتوقف لحظة . « نقاتل لانقاذ اخوتنا أم نستسلم ونتركهم يموتون ؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه علينا الرب ! أما الباقي ... » وحاول الراهب عبثا أن يقاطعه . « أما الباقي ، فهو كل ما يفرق بين ما يقال وما يفعل .. » .

رفع الآخر يده اليمنى بحركة تبريك :

« ان الله يحبنا جميعا ، و ... » .

هدر العملاق :

ـ هذا غير صحيح ! ليس لاحد الحق بأن يقول لمن يموت : « الله يحبك » ، اذا لم يفعل شيئا لتغيير مصيره . اذن فقل ذلك لاسيادك » .

ثم أخذه من ياقة ثوبه ، وقذفه خارجا .

في الداخل ، ارتفعت بعض تمتمات على مستوى الارض ، ولكن هذه الصلابة منحت المجموعة الثقة .

والتفت العملاق نحو رفاقه :

ـ ان أخطر الاعداء هو الخوف . والامر الجوهري هو ألا ننتظر المسيح .

وكبرت فيه ، بوجه الخطر ، قامة نبي .

كانت بالونا قريبة من مصباح الزيت ، وكان ظلها يرتفع حتى قبب الكنيسة . قالت بصوت بالغ الهدوء :

ـ ليس هناك من جواب آخر ممكن . ان على كل انسان أن يختار أمام الموت . ما الذي سيفعله كل منا بحريته ؟ أيكشف الرب الذي يحمله في داخله ؟

كانت قطرات من نار ترشح من جميع شقوق السقف .

ان الهجوم غير منتظر ، قبل أن تنتهي الساعة الموعودة بوقت طويل . بل اننا لم نكتشف اقتراب المهاجمين . لقد رشوا سقوف الكنيسة الهرمة بالنابالم الذي بدأ يلحس الاعمدة الخشبية . وسقطت أنقاض هائلة من السقف . وصرّت دمعة من نار على وشاح بالونا . وأتيح لي الوقت لاطفائها قبل أن يلتهب بها شعرها .

قال العملاق آمرا :

ـ الجميع الى الباب !

وبلحظة واحدة ، قذفت الاعمدة الى الوراء . ووثبنا في الليل . أمسكت بيد بالونا . انها النهاية . أريد أن نبقى مرتبطين في الموت . لقد قتل كثير من المتمردين ، وهم يخرجون ، بضربات الفؤوس . مجزرة منظمة ، لا ترحم . ها هي الام المجنونة ، مع ولدها الميت بين ذراعيها ، تجد الخلاص أخيرا بموتها الثاني : لقد بدت الشفرة الفولاذية كأنها ساقطة من السماء حين شقّت جبين المرأة الراكعة . وركض رجل كمشعل حي ، فحصد لدى مروره . وانقضّت فأس على احدى الرقاب ، في ضوء المشاعل .

أما الذين كانوا قد جرحوا فقط ، فقد أجهز عليهم الخنجر .

وساد الصمت حول الكنيسة . كان يسمع فقط وقع خطى الجلادين الذين يبتعدون . ثم آخر فرقعات الشجرة الميتة التي تلفظ أنفاسها في الليل . والتحق بعضنا بالجبل ، وآخرون بمنعرجات النهر والجزر . ولم يبق أحد من هؤلاء حيا . لقد سمعنا رشقات الرشاشات : كانت زوارق البحرية الرسمية تطلق نارها على جميع الاشباح والظلال . ولقاء عشرين تمكنوا من الفرار ، سقط خمسون قتيلا .

تبعنا ، بصحبة بالونا ، الحطابين في الجبل . كانوا يعرفون جيدا جميع الممرات .

وفي الصباح ، كنا سبعة في منطقة الظل من الغابة : العملاق ، واثنان من أصغر شبان جماعتنا ، وبالونا وأنا ، والحطابان الزنجيان . وبفضلهما انفتحت أمامنا ، عبر الاغصان ، دروب لم يسبق لقدم انسان ان وطئتها .

مضينا كتلة واحدة ، كأعضاء رجل واحد . كان غياب موتانا جرحا حارقا . أما الآخرون ، الاحياء ، أولئك الذين سمعنا نداءهم ... فلم يبق لهم الا أربعة أيام من المؤن ... كنا نمشي ، يستولي علينا هذا الكابوس .

كنت أتقدم كالمروبص ، ويدي المنقبضة في يد بالونا . وكانت أفكار لا رابط بينها تعبر هذا النوم الغريب الشبيه بالموت . ان البشر لا يموتون حقا الا اذا فقدوا مبرراتهم في الحياة . وهذا وحده ما يجعلني أعيش بعد .

ومع ذلك ، فقد كان القدر ، في ذلك اليوم ، يتأرجح . لقد أضاعت الميليشيا والجيش اثرنا . وهي بسبيل تجميع قواها . للمرة الاولى ، تجمّع المجندون الشبان والمرتزقة القدماء في فريق متراص يعدّ زهاء ألف رجل ، في مضيق ، حول شلال بأسفل الجبل .

وكنا مقعين عند حافة الكثيب ، على بعد بضعة مئات من الامتار ، نرصد تخييمهم . كان ثمة ، من جهة ، ستة رجال وامرأة ، ينهشهم الجوع ، ولا يحملون أي سلاح ، وهناك ، من جهة أخرى ، ذلك الجيش الذي سيقوم بمطاردتنا . كنا نقدر جنوننا . وكنا نميز بوضوح رزم البنادق . كانت تلمع في الشمس . كان رجال يرتدون زيا مخضرّا يتجولون بين الفرق بسلال من الخبز وقدور ينبعث منها البخار . ولقد غشي الجوع أعيننا . وتحول فيّ الى شهوة أخرى ، حتى الهذيان .

انك لن تفهم اذا لم يعضك الجوع . الجوع الحقيقي . ليس ذاك الذي يكتفي بحفر ثقب ، هناك ، في معدتك . هذا يحدث في الايام الاولى . أما بعد ذلك ، فان الجوع لا ينوشك في نقطة معينة ، بل هو ينسج خيوطه في الجسم كله ، كالعنكبوت . انك لا تشعر بعد بأعضائك ، ولا عضلاتك . ليس من شيء بعد ليمسك عليك ركامك . ليس من قوة بعد . وتعمل العنكبوت ، بأرجلها الصغيرة التي لا تكلّ ، على تنميل التأكلات تحت أجفانك ، حتى أطراف أصابعك . انك اذن ستصدقني اذا شئت ، بأن الامور اذا بلغت هذا الحد ، فسينطلق الجنس . ليس بعد من شيء سواه : وسواس ، جنون . انك لا تستطيع أن تطرد الهلوسات . ان أي شيء يعكس لك صورة تكفي لان تلهبك .

ان شقا ينفتح ، منا اليهم ، على خاصرة الجبل الممزقة ، أشبه بفرج امرأة هائل . أما شذرات الغرانيت المتلألئة فتهدب بالاحمر والمذهب نتوءات الصخر الحادة ، أشبه بالنسغ الذي يرطب فرجا في تشنج الحب .

يرمينا أحد الحطابين بنظرة انتصار . ينهض واثبا الى الخلف . انه رجل من الجبل . لقد موضع ، بنظرة واحدة ، طريق الشق الذي ينبثق منه النبع . وكان منخرا الجبلي يرتعشان . ان جنونا جنسيا مماثلا استولى عليه وعلى الجبل : هو ذا الجبل يهب نفسه

أخيرا ويهبه قوّته . لقد لمح على قمة الصدع ، على بعد بضعة أمتار تحت الكثيب ، كتلة من الصخر يزيد وزنها على مئة طن ، محشورة في المنفذ بجذع شجرة متشبث بصدوع الصخر .

وقبل أن يأتي أي منا حركة ، وثب الى الارومة الضخمة ، وانصبّ بفأسه عليها يقطعها لينتزع منها الجذور .

أخذ الصخر يئن ، وكان الرجل ، وهو يبذل جهدا شيطانيا ، يرصد في كل أنة من الشجرة والجبل نزو الموت .

ومع ذلك ، فقد اضطره رهق هذه المعركة الغريبة الى التجمد لحظة .

وفي هذا الصمت القصير ، ارتفع من فريقنا صوت رفيقه الاسود الذي فهم ، قبل الآخرين ، التواطؤ السري بين الرجل والجبل :

ـ لقد اختلط مجندون شبان بالميليشيات . أنت تعلم انك ستقتل ، مع المجرمين ، عشرات من الابرياء ..

توقف الحطاب . انفتحت شفتاه وانغلقتا بتشنج . انه يختنق . يريد أن يصرخ . ولكن لم يخرج من فمه أي صوت . ثم أخذ يحدث نفسه ، بصوت أبيض :

ـ هناك ، ليس أمام جماعتنا بعد الا ثلاثة أيام من المؤن . أتريدني ، بحجة عدم القتل ، أن أكون شريكا للقتلة ؟

وسمّر صمت آخر كلا منا الى نفسه . نهض الزنجي الآخر ، فانحنى فوق الهوة ، ونظر مرة أخرى الى المعسكر . ثم تمتم ، قريبا من رفيقه :

ـ ان الموت يتطلب من الشجاعة اكثر مما يتطلبه القتل ... أنت لست بعد حرا ، وقد بدأت ... حين نصبح منتصرين ، أيكون هناك من « هيروشيمات » بعد ؟

وصمت . ولقد أخذ هذا الصمت ، أكثر من أي كلام ، بخناق الرجل الذي كان ينحني فوق الهاوية . وحبست أنفاسي . ولم أسمع أنفاس بالونا ولا أنفاس رفاقي . ولا صوت الشلال ولا الريح في الاشجار .

لم يحاول الرجل المشرف على الهوّة أن يجيب . بل أدار رأسه ، وعاد ينظر طويلا الى الوادي . وارتدّت عيناه الى رفيقه ، طافحتين بالضيق والابتهال . نهض الآخر ، فسار على الجسر الخشبي ، ومدّ ذراعه الى الصديق . بدت أصابعهما تلتقي لحظة. وانتصبنا جميعا في وقت واحد . توترت عضلاتنا كما لنجمع قوانا من أجل أن تنعقد يداهما . واحتفظت في نفسي بهذه الصورة المحرقة الواضحة : لم يكن ذراعاهما العضلتان السوداوان يشكلان الا نبتة عارضة تتموج في الفراغ . وفي ذراع من كان يتقدم ، كانت قوة اله تبدو وكأنها تتجمع وتتركز . ولكأن شرارة على وشك أن تنبثق من طرف اصبعه لدى التقاء يد الآخر .

وفي اللحظة التي تعانقت فيها اليدان أخيرا ، استولى دوار على حامل الفأس ، فأفلتت منه . وفقد توازنه ، فترنح لحظة ، ثم اختفى في الفراغ . وأراد الآخر أن يمسك به ، ولكنه انجرّ معه .

كنا واقفين جامدين ، ملتحمين نحن الخمسة في واحد . وعلى بعد مئتي متر تحتنا ، فوق بلاطة كثيب ، كانت جثتا آخر رفيقين زنجيين لنا ، متمددتين جنبا الى جنب ، كأنهما دميتان محطمتان . كان رأس من قال منذ هنيهة : « ان الموت يتطلب من الشجاعة أكثر مما يتطلبه القتل » قريبا من رقبة الآخر . كانت بقعة كبيرة حمراء تجمعهما . كانا يتحدثان الينا بدمهما .

انقضى آخر حظ لنا بالبقاء . وما كان علينا أن نفعله بعد ، هو الآن فيما وراء الموت ، موتنا جميعا .

لم يكن ثمة الا ثلاثة أيام من المؤن ... لم يكن أمام الآخرين الا ثلاثة أيام من المؤن .

مشينا منحنين ، نجر عربة الموتى التي كانت تزداد ثقلا . تقدمنا ملتحمين ، الاحياء والاموات ... ليس أكثر من ثلاثة أيام .

تقدمنا منحنين ، كما كنا منذ لحظة ، مائلين نحو مفرج الجبل . كانت غايتنا أن ندرك القمة التالية التي نستطيع منها أن نحدد الاتجاه ، المسافة التي تفصلنا عن الاخرى المحاصرة . لا بد انها الآن غير بعيدة جدا .

وانكشف الافق عند القمة الاولى . الصحراء ، ظهور الصحراء . لقد تغير المنظر فجأة . عند سفح الجبل ، كان يفصلنا عن غايتنا ساعة من الرمل والحجارة . فاذا بلغنا الصحراء هذا المساء ، فسيتيحلنا يومان من السير الحثيث أن نلحق برفاقنا . كانت يد بالونا المحرقة تبحث عن يدي . وقد قبعت فيها .

دب في أعضائنا نسغ مجهول . هبطنا المنحدرات وركامها من الاحجار . ولجنا الصحراء بأمل جديد ، بعد هذا القدر من الخسائر والمصائب . كنا ممزقين ، محترقين جسما وروحا ، مسلوبين ، فلم يكن لنا بعد ما نعطيه أولئك الموشكين على الموت الا موتنا. وأحسسنا بشعور من الامتلاء ، بفرح خفي . بدأ ينبوع جديد يتفجر فينا . وفي هذا الفقر الارادي ، الالهي ، لم يبق حتى للموت ما يأخذه منا .

اننا لا نعرف من الرب الا ما يغيره في أعماقنا . ونحن في عري الصحراء أشد عريا . ولكن كل شيء يرد لنا أضعافا مضاعفة : اننا نشارك ، بالحب ، في نشاط الرب اليومي .

اننا نعيش حياة الصحراء الجديدة .

التراب يتلقف أقدامنا لدى كل خطوة ، أخطبوطا هائلا يجرنا الى القبر .

وحين تنتفخ الشمس فجأة عند الافق ، يغرق كل شيء ، الدروب والكثبان والامداء الفارغة بكل محاجمها، في أمواج متلاطمة من النور الدامي . ونتوقف عند حافة هذا النهر . ان العالم يخترقه نهر هذا الدم . الصحراء الملتهبة ... صحراء تتسع وتكبر الـــى ما لا نهاية . ليس ثمة بعد من شيء فـــي الافق . ولا أفق بعد . ونلتفت : فاذا ظلالنا الشبيهة بحشرات سوداء لا كثافة لها ، تتموج عـــلى الارض الحمراء ، على هـذا الموج الاحمر .

هذه الصحراء ، التي تحاصرنا منذ أسحق العوالم، تشعرنا بتجردنا ، بعرينا البشري . تتحطم دائرة كل ما يمكن أن يمسك بنا ، أن يقيدنا . اننا نمشي منذ بضعة أيام نحو عالم الموت . ويتم اللقـــاء في الروعة والسكر .

لقد انتقلنا الى الجانب الآخر من الموت . هنـاك حيث تصبح هذه الحياة الجديدة ممكنة . لا شيء منا بعد ، حتى ولا ظلالنا التي لا ثقل لها ، يلتصق بالارض . اننا موجودون بكثافة لا عهد لنـــا بها . الرمل يغطي ثيابنا ، يغطي جلدنا . ونتوحد بالصحراء . كنا نشارك ، بالصحراء ، في حقيقة فريدة ، أشد واقعية من أيـــة حقيقة أخرى . بتأمل حاد للحياة الكليـــة ، المليئة . وهناك ، حيث تركنا كل شيء ، حيث يغادرنا كل شيء ، هناك ، حيث لا خيمة تحمي رؤوسنا ، حتى ولا سماء ، حتى ولا أرض ، مسكونين فحسب ، بموت جميع الرفاق الذين أحببناهم ، كنا نحسّنا ، بجنون ، في وصال مع الكلّية التي لا شكل لها ، مع حياة بلا حدود يدخلهـــا موتانا معنا .

لحظة خالدة من لقاء خالد ، من غنى الحب الخالد ، اللقاء الوحيد الممكن بعد لقاء العدم ، بعد لقاء الصحراء .

تنبهر عيناي لحظة بتدفق النور الذي يرنح كـل شيء ، في أعماقنا وخارج كياننا ، فتنخفضان بهـدوء نحو الارض .

وتبدو قدما بالونا ، بقشرهما من الدم الاسمر ، وبجلدهما المتشقق ، تغادران الارض لتقتربا من حدقتيّ وتكتسحا حقل الرؤية كله . وأتداعى على التراب بمثل بطء المياه التي ترشح على جـــدران الجبل . وتلتصق شفتاي بتلك الجـــروح المعجونة بالشمس والليـــل . واحسّني مشـــدودا بألف خيط غير مرئيـــة بعذاب العالم كله .

لقاء أبهى من لقاء الصحراء في بدهية جسدية . لقاء الآخر ، العاري مثلي ، الأم ، العاشقـة ، الاخت ، الطفل ، جميع أشكال الحب الممتزجة .

كم من الوقت استغرق هذا التأمل ، نشوة هـذا اللقاء الثاني ، بعد لقاء الصحراء ؟ وهذا الانفصال كذلك، لانني لست بعد أسير أي رباط ، أي ضغط ، الا ضغط ذراعيها وشفتيها ، في مشاركة لصعود الحب يتجـاوز قدرة البشر .

انني أحس ، في الليل الذي يثقل الآن على الارض، ركوع بالونا . ان انزلاق جسدها على جسدي يحـدث فحسب صوت نسمة خفيفة ، أشبه بتصميم رسم في السماء وهمس في أذن نبي في حميمية اله .

أقبل الليل . ونحن الآن مأخـــوذان فـي مرآة الصحراء السوداء . يتطابق جسدانا المرتعشان ليخففـا من تأثير عضة الجمد .

ومن شفتيها يخرج النفس الوحيد الـــذي يملك حرارة الحياة ، فأتمصصه بنهم .

يمضي الروع عنا . كل شيء يبتعد . وترتفع أغنية جسدينا ووجهينا الممتزجين .

تختم فمينا خثارة من دم .

أنت حياتي . أنت مماتي . ومن كل عرق فيك ، يفيض العنف . تصبّين فيّ ألوف السنوات الضائعة .

انني لا أحدثك بعد . أجعلك أنت . تجعلينني أنا .

ويهب كل جسدها المتقوس نفســـه لرغبتي في أصدق أشكالها .

تتحقق جميع لقاءات الصحراء، بشارات الصحراء.

لا نشكل بعد الا كتلة واحدة من حباة . العالم كله مربوط بجلدينا . دم العالم كله ينبض في عروقنا .

جذور قادمة من تخوم الارض تتعانق فينا .

اننا لا نكوّن الا كلا واحدا مع هذا العالم الـذي شرعته العميقة هي الحب .

وتكون وجنتاها الناتئتان القاسيتان ، وجنتـــا الهندية ، جزءا من وجهي . وجبينها العريض العالي .

تمتزج أهدابها بأهدابي . وتتطاير جدائلها المحملة بالحياة على طول جسدي ، ماء حارا من مـــاء حقـول الارز ، أو نسمة رطبة من نسائم الجبـــال . وتمتزج سيقاننا وأصابع أيدينا كما تمتزج قوائم نعجـــة بقوائم الحمل الذي ترضعه . وتنعقد عظامنا ، من الرقبة حتى الابطين .

يخفق نهداها على صدري ، على ايقاع قلبي .

يحلّق فوقنا نسر متأخر . جناحاه الاسودان هما نذير الغد الموعود .

يعانق عضو بالونا المحموم عضوي ، ويتدفق دمي كله وينبض في دمها ، في موجة صاخبة آتية من جميع الآفاق ، ليشكل النشوة الابدية التي تمتزج فيها ، عبر جسد واحد ، مصنوع من رجـل وامرأة ، الحجـــارة والنجوم ، بذور الارض التي لا نهاية لها ، وحقول السماء التي ليس لها حدود .

انني أنفتح لك بأجمعي ، لأبتلع رأسك وجسدك ، لاحتفظ بهما فيّ ، لاحميهما، أنا الأم ، ولامنحهما الحياة مرة أخرى بأن ألد من أحبه لحياة أكبر .

انني منفتحة لك بكل أثلام جسدي . بكل عواصفه. وأنغلق عليك ، بعناق لا قرار له ، كالبحر ، بل أثقل .

اننا في أعماق المياه الحاسدة التي تبسط علينا كفنهـــا .

ونمنا في موجة سعادة لا ذاكرة لها . وأيقظتنـــا عند الصباح ، من أجل احتضار جديد ، شمس شبيهة بنسر عائد من الجبال .

تبقى الحرية التي يمنحها الحب مسمرة الى التراب، وقلبانا في الرمل والحجارة . وننهض وفي حلقينا هذه الصرخة التي لا تقتل أبدا ، هذه التي يدعونها الجـوع الى الحب والتعطش لان نكون أحرارا .

انها ليست بعد على شفتينا صرخة الوحدة .

انني أكتشف ينبوعي الذي بدأ يغني في قلبك .

ليس ثمة الا قصة واحدة ، وهي قصة حب ، ذلك لاننا نعيش كل قصة الاشياء والبشر كما نعيش بـذور حريتنـــا .

مع بالونا ، عشت يومين من السعادة . وانه لشيء عظيم ، بالنسبة لحياة طويلة : كان يوم الاربعاء يقظـة صباحنا الاول . والجمعة ، ميلاد اليوم الاخير . بـلا قيامـــة .

ليس من أهمية كيف ومتى بـــــدأنا نحب أحدنا الآخر . أين عشنا في أرفع مستوى من نفسينا . حيث لا يكون الله ومعركتنا وحبنـــا الا واحدا . ان هـــذه الاشياء تبنى بعد انتهاء الامر . انها لا تروى .

اذا رقص لحن ناي في رأسي ، فهو يرقص أيضا في رأسها ، حتى ولو كانت شفاهنا مطبقة .

انها تمشي دائما خطوة أمامي .

وتستدير الي ّ ، ثم نأخذ في الضحك ، شريكين متواطئين يحزر أحدهما نوايا الآخر .

في المساء الثاني ، حين أغلقت الشمس أشعتهـا على قلبها الممتلىء بذورا ، تبادلنا النظر بحزن سعيد . كنا على يقين بأن ركاما من الاسئلة سترتفع عما قليل في أحلامنا ، وان واحدا منا لن يستطيع وحده الاجابـــة عليهـــا .

اختبأنا للمرة الاخيرة خلف صخرة . لان غـــدا سيكون يوم نهاية مهمتنا . ان عنـــــدهم بعد يوما من المؤن ... يوم ... يوم طويل . ونحن واثقون الآن مـن اننا سنبلغهم قبل أن يموتوا .

ولقد عشنا لحظات لا ذاكرة لها . لقاء حب ، ووعد بالوجود ـ وبالموت .

في الصباح الاخير ، تكلمنا قليلا ونحن نمشي .. حتى التنفس ، كان جهدا ينبغي الاقتصاد فيه اذا شئنا الوصول الى النهاية . كنا متوترين ، أقواسا توشك أن تنقطع . هناك ، كان الآخرون ، على قمتهم . وقد كان حبنا جزءا منهم .

انني على يقين من ان بالونا تفكر في الامر مثلي ، وتفيض بالفرحة نفسها : ها نحن ذا أخيرا ، على درب القمم ، نعدو نحو الهدف ، متخففين من الارض ومـن مخاوفها .

لا شيء يشدّنا بعد الى دارة « كارما » ، كما كان يقول رهبان حياتي ـ ما قبـــل الاخيرة ، الى الدائرة الجهنميـــة للحاجات الزائفـــة ، وللرغبات الزائفة ، وللاعمال الزائفة من أجل اشباعها .

ان مشروعنا مشروع جنوني .

لقد ربّينا ، نحن الخمسة ، في الكنيسة . ولكن لا يخطر لواحد منا ، حتى في هذه الساعات الاخيرة ، أن يؤدي صلاة الصباح أو المساء . لم يكن لشيء أهمية الا ذلك الفريق الصغير المصلوب عـلى قمته . أن نوجد من أجلهم ، ذلك ما أصبح طريقتنا في أن نعيش ايماننا. فما عسى الكلمات أن تضيف اليها ؟

تلك الليلة ، شاطرت العملاق مهمـة الحراسة . ولقد قاومنا النعاس ، والارهاق ، والجوع . قال لي :

ـ أن يكون المرء فقيرا ، لا يعني ألا يملك شيئا . بل أن يصبح فقيرا بأن يريد ذلك ، الى أن يفقد كـــل شيء ، حتى حذاءه . لقد علّمنا يسوع هذا الفقر ... ولكنه هو ، حين لـم يبق له شيء بعد ، حتى ولا حب ذويه ، بحيث لم يكن ثمة من يأتي لنجدته ، ماذا كـانت تعني تلك الصرخة التي أطلقها والتي أكبتها اليوم ، في أعماق حنجرتي : « لماذا تخليت عني ؟ » انه هو الـذي تخلى عن كل شيء . ولذلك تركـه « أبو » الحب ... قل لي ، أهذا هو الحب ، حين يمضي الى النهاية ؟ » .

بقيت طويلا من غير أن أجيب . وكانت بالونا الى جانبي ، لا تنام . كانت عينـــــاها تحملقان « بصليب الجنوب » . ومن غير أن تغادر بعينيها النجوم ، قالت :

ـ ان في السماء نجوما أخرى ، ولا ريب ان فيها وجوها أخرى للرب . وكذلك دروب أخرى للذهاب الى الحب . أتراه كان يكون حتى النهاية انسانا لو لم يكن قادرا على هذا اليأس ؟ ما كـــان ينبغي أن يسلم الـى الموت ، وأن يتخلى عنه الجميع ... و « أبوه » نفسه ، حتى يبلغ القاع ؟ ان حبا كهذا يستطيع وحده أن يحطم حدود حبنا ... لا ، انه لا يعلمنا أن نرضخ للمـــوت مستسلمين . انه يعلمنا ان هناك أملا بعد اليأس .

عند الفجر ، استأنفنا السير . دعتني الى قربها . أراحت رأسها على كتفي وبكت بصمت . كانت ترتعش في نسيم الصبـــاح . دثّرها العمـــلاق ، في حنان ، بوشاحها الصغير الذي احتفظ به منذ ذهابنا .

لم يكن بيننا من يستطيع التكهن بأن بالونا لن ترى بعد ، في اليوم التالي ، شمسا أخرى تبزغ .

عند الشفق ، بعكس النور ، أطلقنا صيحة فرح . آخر صيحة . كان على القمة التي كانت جهودنا ، منذ بدء المسيرة ، تتجه اليها ، فريق من الرجال ، ونار، وعلم . انهم هناك . لقد صمدوا .

طفر رفيقانا الاصغر سنا ، في اثر العملاق ، مغسولين من كل تعب . ان الهدف في متناولنا . وتبعناهما ، بالونا وأنا ، يدها في يدي ، نعدو بكل قوانا .

على أمتار من القمة ، انبثقت أشباح من خلف دغل ، أشبه بلهب أسود . كانت المعركة ، التي استعمل فيها السلاح الابيض ، قصيرة : فقد أوقف العملاق أولا ، بذراعيه المشتبكتين ، الساطورين اللذين شهرا فوق رأسي رفيقيه . ولكن العدو انبعث من جميع الكثبان وجميع الصخور .

انهار العملاق ، وقد شجّ رأسه بضربة فأس جاءته من خلف . وفي اللحظة التالية ، عرف الشابان المصير نفسه ، والموت نفسه .

أنزل رجال القمة العلم ، وتدفقوا نحونا بصرخات وحشية . لقد نجحت حيلتهم .

فالميليشيا التي تجهل عددنا المضحك ، عمدت الى خدعة : فقد ألبست بعض رجالها أسمال مقاومينا الذين أخرجوا من قمتهم ، واحتفظوا بعلمهم ليدخلونا في الفخ .

وها هي بقية فصيلهم ، المختبىء خلف الصخور والاشجار ، تتقدم الآن نحونا . من أمامنا ومن ورائنا . من جميع الجهات في وقت واحد .

كنت مع بالونا في قلب هذا الجمع من الاشباح . وكانت ضحكات كاسرة تنطلق من كل شجرة .

من الخلف ، قبضت عليّ أربع أيد وألصقتني بشجرة بلوط حيث أوثقتني . وكانت الحبال من قسوة الربط بحيث ان الدم انبثق من جروحي مسودّا . كان الجلادون يأملون أن ينتزعوا مني بعض الانين المتوجع . لن أعطيهم هذه الفرحة . غير اني أحسست برأسي ينتفخ حتى الانفجار ، وبفوهات كبيرة من الحمم الملتهبة تنفغر أمام عينيّ .

أما بالونا ، فقد أصدر قائد الفصيل الامر الى أربعة من مرتزقته بأن يجردوها من ملابسها . وحين أصبحت عارية وسط الحشد، أوثق معصميها وعرقوبيها بالحبال ، وأباحها لرجاله ، فانطلقوا يمرون بشفاههم الشرهة على نهديها وبطنها وعضوها . وكان القائد يضحك ، ثم هدر : « الى الوراء ! » . وبصفعة من سوطه المجدول من عصب ثور ، طردهم جميعا ، ما خلا الذين يمسكون بالحبال من أجل فسخها . وأمر بكبها على وجهها أرضا . ثم أخرج عضوه الاسود ، الشبيه بعضو فحل النزو ، وباعد بكلتا يديه ردفي ضحيته ، فاخترقها بعنف . وأطلقت هي صرخة ألم بلغ من حدّتها ان الوهاد رجّعت طويلا صداها الذي مطرق صدغيّ . ثم استدار القائد الى جثة العملاق الميت ، فأخرج خنجره وقطع به عضوه الذي أخذه بنفسه ودسّه في فم بالونا فخنقها به .

وبالقهقهة الوحشية نفسها ، أمر بالقاء جسمها من أعلى التلال .

نظرة بالونا ... نظرتها نحوي ... نظرتها الاخيرة ... هذه النار المسروقة من السماء ... رأيتها تقبل عليّ بجناحين كبيرين أسودين .. أشبه بالنيزك. كانت تمزق جميع الشموس وجميع العواصف ... ذلك الخط من الدم في السماء وعلى الارض .. هذا الخط من الدم في حياتي المشجوجة بالفأس ... كرأس العملاق .

العالم وعيناي الفاغرتان بكل جنوني ... رأيت تلك النظرة ... أتراني قد أبصرت ذلك الضوء الذي كان يثقب السماء في بؤبؤها الاسود ؟ لقد توقف الزمن ... الزمن ، في هذه النظرة التي كانت تستوعب العالم .. جميع ألوان التعذيب والاذلال ... زمن أن أقرأ ، في تلك النظرة ، الحب المطلق ... فيما وراء الموت ... ذلك الثقب الكبير ، في السماء وعلى الارض ... وهذا الجسم الذي يدور ... وهذا الجسم ... وتلك النظرة الجامدة في الفراغ ... نظرة جميع العيون تلك ... نظرة الراهب وهو يحتضر ... والعين التي مزقها التعذيب .. مع التماع « المسيح » النحاسي .

تلك النظرة ... لن يكون لي في العالم ، بعد ، ما هو أشد منها واقعية ... ليس من حياة بعد أشد منها واقعية ... تلك النظرة ... تلك النار المسروقة من السماء ... تلك النظرة ... تلك النظرة ...

لا أذكر متى توقفت رؤاي للدغل الملتهب . متى توقفت همهمات الوحوش ، ولا أصداء الوهاد . ولا متى أغمي عليّ بين الارض والجحيم .